تصدير

للدكتور محمد مهدي علام

الأُرتُقِيّات

تمهيـــــد :

فى بعض العصور الأدبية التى تخلفت فيها الحركة الثقافية : كان بعض الكتاب والشعراء يلجئون إلى الزخرف اللفظى وإظهار البراعة فيه : وقد شاع من ذلك عدة فنون ؛ منها كتابة ما يقرأ طرْدًا وعكساً ، كقولهم : ساكِب كاسِ : لُمْ أخاً مَلّ ، كبر رجاء أجر ربك .

مَوَدَّتُه تدومُ لِكلِّ هَـوْل وهَلْ كُلُّ مَودتُه تَدُوم ؟

وكذلك التزام حرف أو عدة أحرف فى مقالة ؛ أو تجنب حرف فى الكلام أو الكتابة ، وفى هذا الميدان نصوص وقصص مسلية . فمن ذلك ما هو معروف عن واصل بن عطاء الذى كان ألثغ بالراء . وكان الناس يعابثونه فى ذلك . ذهب إليه فى طريقه غلام بورقة وطلب منه أن يقرأ له ما فيها ، فنظر واصل بن عطاء فى الورقة ووجد أن فيها :

« أمر أمير الأُمراء بحفر بئر فى الصحراء ؛ ليشرب منها الشارد والوارد » .

فأجابه قائلا :

« حكم حاكم الحكام بوضع عين فى البادية ليستقى منها الحادى والبادى » ..

وظهرت رسائل تلتزم حرفاً لحكمة بلاغية ، أو تحية لممدوح . وأروع ما أخرجته الأقلام فى هذا الباب ديوان شعر كامل من تسع وعشرين قصيدة ، وكل قصيدة تتألف من تسعة وعشرين بيتاً ، على حرف من حروف المعجم ، وكل قصيدة تبدأ بواحد من الحروف التسعة والعشرين ، وتنتهى قافيتها به .

وتعرف هذه القصائد بالأرتقيات ، وقد اقتصرت فى كل قصيدة على بيتين من مطلعها ، وبيتين فى ختامها (عدا مطلع القصيدة الأولى ، فقد اخترت منه سبعة أبيات) .

* * *

الأُرتُقِيّات

من ديوان صفى الدين الحلى

(صفحات ٧٠٥ ـ ٧٦٢)

أو كتاب « درر النحور فى امتداح الملك المنصور »

لصفى الدين الحلى

(٦٧٧ ـ ٧٥٢ هـ) ١٢٧٧ ـ ١٣٣٩ م

الديوان طبعة بيروت سنة ١٩٦٢

بعد الحروب التى قامت فى الحلة ، وانتشار الفتن ، ارتحل صفى الدين إلى آل أرْتق ، ملوك ديار بكر بن وائل ، فمدح الملك المنصور نجم الدين أبا الفتح غازى ، بتسع وعشرين قصـيدة ، كل منها تسعة وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم ، بدأ كل بيت منها به ، وبه ختمه ، وسماها : درر النحور فى مدائح الملك المنصور ، وسميت أيضاً بالروضة ، وهى المعروفة بالأُرتقيات . وهذه القصائد ، وإن تكن تدل على مقدرته اللغوية ، وخصب شاعريته ، يشوبها كثير من التكلف والمغالاة ، بَلْهَ تكرار القوافى وتقلقل بعضها فى أماكنها . (مقدمة الديوان بقلم كرم البستانى).

الأُرْتق : راتقو فَتْق الدين ، جابرو كسر الإسلام والمسلمين .

(أ)

أبت الوصال مخافة الرقباء وأتتك تحت مدارع الظلماء
أصفتك من بعد الصدود مودة وكذا الدواء يكون بعد الداء

* * *

أعجبتِ مما قد رأيتِ ، وفى الحشا أضعاف ما عينت فى الأعضاء
أمسِى ولست بسالم من طعنة نجلاء ، أو من مقلة كحلاء
إن الصوارم واللحاظ تعاهدا أن لا أزال مزملا بدمائى .

* * *

أقبلتُ نحوك فى سواد مطالبى حتى أتتنى باليد البيضاء
أرقى إلى عرش الرجا رَبَّ الندى فكأن يومى ليلة الإسراء .

(ب)

بدتْ لنا الراحُ فى تاج من الحَبَبِ فمزّقتْ حالة الظلماء باللهبِ
بِكْر إذا زُوّجت بالماء أولدها أطفالَ در على مهد من الذهب .

* * *

بدائع من قريض لو أتيتُ بها فى غيركم كان منسوباً إلى الكذب
بقيتَ ما دارت الأفلاك فى نعم محروسة من صروف الدهر والنوب .

(ت)

تاب الزمان من الذنوب فَوَاتِ واغنم لذيذ العيش قبل فَوَات
تم السرور بنا ؛ فقم يا صاحبى نستدرك الماضى بنهب الآتى ؛

* * *

تحلو صفاتك فى القلوب ، كأنها جاءت لمعنى عارض فى الذات
تِهْ فى الأنام ، فلا برحتَ مؤمَّلا تَجْلو الجفونَ وتملأ الجفنات ؛

(ث)

ثقتى بغير هواكمو لا تحدثُ ويدى بحبل وصالكم تَتَشَبّثُ
ثَبُتتْ مغارس حبكم فى خاطرى فهو القديم وكل حب محدث ؛

* * *

ثِقةً بأن يد الردى : إن غادرتْ مَيْتا : فعندك بالمكارم يُبْعث
ثبُتَتْ ، ولو حلفت بأنك ناعشٌ بنوالِكَ الأرواحَ لم تك تَحْنَثُ .

(ج)

جاءتْ لتنظر ما أبقتْ من المُهَجِ فعَطَّرتْ سائر الأرجاء بالأَرَج
جَلتْ علينا مُحيًّا لو جَلتْه لنا فى ظلمة الليل أغنتنا عن السرُّج .

* * *

جُزْنا البلادَ ، ولم نقصد سواك فتًى من يَحْظَ بالدُّرّ يَسْتَغْنِ عن السَّبَج
جمعتَ فضلا ، فلا فرّقته أبدا أنت الفريد وكل الناس كالهمج .

(ح)

حَيِّ الرفاق ، وطُفْ بكأس الراح واطرزْ بكأس حُـلَّة الأفراح
حُثَّ الكئوس إلى جسومٍ أصبحت فيها المُدامُ شريكة الأرواح .

* * *

حرَمٌ ، إذا حل الوفودُ برَبْعِه قُرِنَتْ عواقبُ سعيهم بنجاح
حَمِدوكَ جُهْد المستطيع ، وأثبتوا لعُلاكَ شكرا ماله من ماح .

(خ)

خيالٌ سَرى والنجمُ فى القرْب راسِخ ألَمَّ ، ومن دون الحبيب فراسخ
خطاهُ كماءِ البيد يجرى ، وبيننا هِضابُ الفيافى ، والجبال الشَّوامخ .

* * *

خذِ المدْحَ منى ، وابق للحمد سالما هنيئاً لذِكْرِ عَـرْفُه بك فائح
خَلِىٌّ ، يصوغ المدح فيك قلائدا ويُنشِده راو ، ويكتب ناسخ .

(د)

دَمعٌ مَزائِدُ قطْرِهِ لا تَجْمَدُ ، أنَّى ، ونار صبابتى لا تخمد
دام البُعادُ ، فلا أزال مكابدا دَمْعا يذوب ، وزَفْرةً تتوقد .

* * *

دانَيْتُ رَبْعَك ، والأعادى شمَّتٌ فرجعتُ عنه والورى لى حُسَّـدُ
دمْ هامَةَ العلياء وابْقَ مملَّكًا أبدًا يَحلُّ بك الزمان ويَعْقد .

(ذ)

ذكَر العهودَ فأَشْهرَ الطرْفَ القَذِى صبٌّ بغير حـديثكم لايعتدى
ذاق الهوى صِرفاً ، فأَعْتبَ قَلبَه فِكْرَ الصُّـحاةِ ، ومكرة المتنبذ .

* * *

ذُرْتَ الزمانَ على الطُّغاةِ وقد طغى وَجَلَوْتَ طرَفَ المكرمات وقد قذِى
ذَوِيَتْ عِداكَ ولا يَرِحتَ مُنعَّما عن رِفدِ طُلاب الندى لم تُجْذَذِ .

(ر)

رَقَّتْ لناحين همَّ الصبح بالسَّفر وأقبلتْ فى الدُّجَى تسْعَى على حذَر
راض الهوَى قلبها القاسى ، فجاد لنا وكان أبخل من تَمُّوزَ بالمطـرِ .

* * *

راحتْ إلى جَنَّةٍ حَلَّ العُفاةُ بها فى الخُلْد ، واتَّكَئُوا فيها على سُرُر
رجعت أُعتِبُ نفسى فى تأَخرها عنها ؛ وطورا أُهنِّئ النفس بالظفر

(ز)

زار والليـل مـؤذن بالبراز وهو من أعين العِدَى فى احتراز
زائر جاء تحت جلباب ليل شفق الصبح فوقه كالطراز

* * *

زهرات المــديح باسمك تزهو ليس يزهو ثوب بغير طراز
زدتُ فى حب مدحك ، فارتح لعَبيـ ـط المــديح والإرجــاز .

(س)

سفح المزاج على حُمَيَّا الكاس وسعى يطوف بها على الجُلاس
ساقٍ ، فلو طرح المُدامَ لأسكرت صهباءُ فاترِ طَرْفه النَّعَّاس .

* * *

سَمحُ الأكفِّ ، تروم نائلك الوَرى وتخافك الآســاد فى الأخياس
ســعدٌ أتاك من الإله مؤيَّد فاخلُدْ ، ودم فى نعمة وغراس .

(ش)

شَمُولٌ إلى نيرانها أبدًا نَعْشو لَتُنْعِشَنا من بعد ما ضمَّنا نَعْشُ
شُغِفْنَا بها ، والعِزّ قد مدَّ ظِلَّه علينَا ، ووجه الأرض هَشٌّ لنا بَشُّ .

* * *

شَكَكْتَ كُلاها فى رماح كأنها أفاعٍ لها فى كل جارحة نَهْشُ
شَرَّفتُ مدحى فيك يا مُغْرِقَ الوَرَى بجُودٍ هَتُونِ المُزْنِ فى ضِمنه طشُّ .

(ص)

صَرْف المُدام به السرور مُخَصَّصُ وبه الهموم عن القلوب تُمحَّصُ
صَرَّفْتَ بها عنك الهموم لتغتدى فِرَقاً ، إذا تُمْلَا الكئوسُ النُّقَّص .

* * *

صَوَّبت نحوَكمو عِنانَ مدائحى فمُدقِّقٌ من نَظْمها ومُلَخَّصُ
صحَّت معانِيها ، وشُرِّف لفظُها بِكمو ، وطاب خِتامها والمَخْلَص .

(ض)

ضَحِكَتْ ثغورُ حدائق الأرضِ فَسَهَتْ عيون النرجس الغَضِّ
ضَرَبَ الربيـعُ بها مَضَارِبَه وجَرَتْ جِيادُ السُّحْبِ فى الرَّكْضِ .

* * *

ضَجِرَ الذى جاراه حين رأى سهمَ القضاء بأمره يَمْضِى
ضَلَّيتُ إن لم أُصْغِهِ مِـدَحِى . وإليـه نِضْوُ قريحتى أُنْضِى .

(ط)

طاف يَسْعَى بسرعة ونشاطِ ويعاطى المدامَ أحْلَى تَعاطِ
طَيِّبُ النَّشْرِ ، يَجرح اللحظُ ...خَـدَّيْهِ... ويُدْمِى أعْضادُ مَس القَباطى .

* * *

طيِّبُ اللفظ ، لو حوتْه اللآلى جعلتْه الحسـانُ كالأقراطِ
طُرَفٌ كالعقود ، فالدر منها ذِكرُه والبُيُـوتُ كالأسماط .

(ظ)

ظفِرَت سهامُ فَواتِرِ الألحاظ فرَمَتْ صميمَ قلوبنا بشُوَاظ
ظلَّتْ تقاتلُ للمقاتل أسهُما أغْنَتْ عن الأفـواق والأرعاظ .

* * *

ظفِروا بظلك : يا مليك ، فإنهم بِوَلاك قد فازوا بخَيْرِ حِفاظ
ظُرَّانُ أرضِك للسماء قد اغتدت بك فى مفاخرة وفرط غِياظ .

(ع)

عذل العواذل فى هواك مُضَيَّعُ هبْ أنهم عدلوا فمن ذا يسمع ؟
عذلوا ، ولو عدلوا بأرباب الهوى ما حركوا ما ليس فيه مطمع .

* * *

علمًا بأن الجود فيك صنيعه طبع ، وذلك فى سواك تطبع
عِشْ فى نعيم لا يُنَغِّصُ ظِـلَّه وَغْلاً يذِل بها الزَّمان ويخضع .

(غ)

غير مُجْدٍ مع صـحة وفراغ طول مُكثى . والمجد سهلٌ لباغى
غَفَلتْ همتى عن السعى حتى بلغتنى الأيـامُ ثمرَ بـلاغ .

* * *

غاض منه ماءُ الحياة فبادَتْ حـذرًا من سِنانِكَ اللَّذَّاغ
غَمّ أعـداء لا بَرِحْتَ بمُلك آمنا من شوائب الارتيـاغ .

(ف)

فَتْك اللواحظِ والقدود الهيفِ أغْرَى الشُّهاد بطَرْفِيَ المطروف
فجهِلت تضعيف الجفون ؛ وإنما ضُعْف القلوبِ بذلك التضعيف .

* * *

فُهْنَا بنظم حديثه مع أننا ما إن نرومُ به سوى التشريف
فزْنا به الفوز العظيم من الردى وأمِنَّا فى مَغْناهُ كل مخوفِ .

(ق)

قفى وَدِّعينا قبل وَشْك التفرق فما أنا مَن يَحْيا إلى حين نلتقى
قضيتُ وما أودَى الحِمامُ بمهجتى وشِبتُ وما حلَّ البياض بمَفْرِقى .

* * *

قَليلٌ إلى أرض العراق تطلعى وجودُكَ قيدٌ بالمكارم مُوثِقى .
قَنِيْتُ بمغناك الحوادثَ إذْ رأتْ بحَبْلِك من دون الأنام تعلُّقى .

(ك)

كُفِّى القتال وفُكِّى قَيْد أَسْراكِ يَكْفيك ما فعلتْ بالناس عيناكِ
كلَّتْ لِحاظكِ مما قد فَتكتِ بنا ، فمَن تُرَى فى دم العُشَّاق أَفتاك ! .

* * *

كَفَيْتَنَا منكَ مَنًّا لو وُصِفت به لَظُنَّ ذلك منا نوْعَ إشراك
كذاك لازلتَ تكفِى كل ذى جَسدٍ فَتْكَ الخطوب بعزمٍ منك فتّاك .

(ل)

لم أدْرِ أن نِبال الغُنْج والكَحَل تحت السوابغ تُضْحِى مُهجةَ البطل
لعل طرفك من أسمائه ثُعَلٌ كذلك الرمىُ منسوب إلى ثُعَل .

* * *

لو كان مِثلك موجودًا نَظمت به أضعافَ ما نظموا فيه ذَوُو الطَّوَلِ
لك الولاية ، فارْقُدْ فى علاك على هام السِّماك بِعِزٍّ غيرِ منتقل .

(م)

مَغانمُ صَفْوِ العيش أَسْنَى المغانم هى الظلُّ إلا أنه غيرُ دائم
مَلكتُ زِمَامَ العيش فيها ، وطالما رَفعت بها أُولَى وقوع الجوازم .

* * *

مشيْنا ، ولو أنَّا وَقَيْنَا بِحَقِّه مَشيْنَا على الأحداق دُون المناسِم
مَدَى الدهرِ لا زالتْ تحُج بنا الرَّجا إليه ، وتحظى بالغِنى والغنائم .

(ن)

نَعَمْ ، لقلوبِ العاشقين عيون يبَينُ لها مالا يكاد يَبِين
نظرْنا بها ما كان قبلُ من الهوى فدَلَّ على ما بعدها سيكون

* * *

نَعِمْت ، ولا زالتْ ربوعُك جنة فمَغْناك حِصْنٌ للعفاة حَصِين
نهَبْت الثنا والجود والمجد والعلا ونِلت الأَمانى ، والزمانُ سُكون .

(ه)

هل علم الطيفُ عند مَسْراه أن عيــون المحب ترعــاه ؟
هَيــج أشواقنــا بزَوْرَتِه ثم انثنى والقلوب أسراه .

* * *

هَويتُ طِيبَ الثنا ، فلا برِحتْ تُحْــدَى إلى نحْوِكم مطاياه ؛
هَبَّتْ إلى مدحكم جوارِحُنا فكلُّهــا بالثنــاء أفْــواهُ .

(و)

وحَقِّكَ إنى قانع بالذى تَهْوَى وراضٍ ولو حملتَنى فى الهوى رَضْوَى
وهبْتُك روحى فاقضِ منها ولاتَخفْ لأن عِنانى نَحْوَ غيرك لايُلْوَى .

* * *

وأَوْردنا من جود كَفَّيْه نِعمة وصيَّر جَنَّاتِ النعيم لنا مَأْوَى
وحَسْبِى من الأيام أنى بِظِلِّه وَلى جُودُه مَحْياً ، ولى رَبْعُه أَحْوَى .

(لا)

لا نِلْتُ من طِيبٍ وَصْلِكم أَمَلا إنْ أنا حاولت عنْكمُ بَدَلا !
لا كان يوماً يدومُ ، غيرَكمُ قلب على فَرْط حُبِّكم جُبِلا !

* * *

لأجْل ذا أَنْجُمُ العُلا طلعت به ، ونجم الضلالِ قد أَفَلا
لَأَرْبُعُ المجــدِ منك آنِســةٌ فلا خَــلَا رَبْعُها ولا عطِــلا !

(ى)

يا هلالًا من « سُلْطةِ العىِّ » حيِّى أشرق الصبح تحت ليل دَجِىِّ
يوسُفىُّ الجَمال ، كمْ تاهَ صَبٌّ فى معــانى جماله اليوسُــفىِّ !

* * *

يتَّقِى الهَوْل منه طَوْرًا ، وطوْرًا جُودُه سَعْدٌ لكلِّ شَقِىٍّ !
يَقْسِمُ الدُّولَ بالسَّطا والقطايــا بين يَــوْمَىْ إقامــةٍ ومَطِىِّ .

* * *

نقلا عن كتاب « دُرر النحور ، فى امتداح الملك المنصور » المنشور ضمن ديوان صفى الدين الحلى ، طبعة بيروت بتحرير كرم البستانى ١٩٦٢ م

بمكتبى بمجمع اللغة العربية

نائب رئيس المجمع

محمد مهدى علام

المشرف على المجلة